الخوَارج

نشأتهم :

قلنا فيما مر أن خديعة عمرو بن العاص قامت بما عجزت عنه الأسنة والرماح، فقد سرت في نفوس أهل العراق سريان النار في الهشيم، وعبثاً حاول أمير المؤمنين علي ﷺ أن يبين لهم وجهة الخديعة فيما أقدم عليه الأعداء فقد طالبه الكثيرون من جنده بوقف القتال، وأجابهم علي مكرهاً إلى ما يريدون، وأرسل الأشعث بن قيس للتعرف على ما أراده أهل الشام برفع المصاحف فقال معاوية: من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق، نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله تعالى في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما العهود أن يعملا بما في كتاب الله. وجد كلام معاوية طريقه إلى قلب الأشعث فتبناه وعمل على الترويج له وأتى علياً في جمع من أهل اليمن فألزموه بقبول التحكيم. كان في جند علي كثيرون كرهوا ما أتى به الأشعث فرفضوا التحكيم وخرجوا عن طاعة علي ومن هنا سموا بالخوارج.

والسر في معارضة الخوارج للتحكيم مع أن نصوص القرآن تأمر به عند التنازع، هو أنهم يرون أن علياً إمام بويع بيعة صحيحة، فليس له أن يقبل التحكيم مع جماعة خرجوا عليه بعد أن بين القرآن حكم الخارجين على السلطان وهم البغاة والله تعالى يقول: ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾. أي ترجع إلى أمر الله تعالى، والله أمر بإطاعة الأمير بقوله: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾. إذن ما يتخذه الإمام أمام هؤلاء واضح لا خفاء فيه، والتحكيم شك في أي الفريقين

صاحب الحق، وهم ومن قتل منهم قد حاربوا مؤمنين بأن الحق بجانب علي فكان الأجدر به أن يمضي في حربهم حتى يدخلوا فيما دخل به عامة المسلمين أو يقتلوا عن آخرهم، أما ملاينتهم فهي إدهان في دين الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه إلا لله.

انفصالهم عن جند علي كرم الله وجهه

فارق علياً أثناء رجوعه من صفين ما يقرب من اثني عشر ألفاً من جنده نزلوا حروراء[1]، وكان أكثرهم من بني تميم فسموا الحروريون وقد عرفوا بالمحكِّمة حيث كان شعارهم (لا حكم إلا لله) سمع علي ﷺ هذا الشعار فقال: كلمة حق أريد بها باطل. وسموا بالشراة[2].

عز على أمير المؤمنين علي ﷺ أن ينفصل هؤلاء عن جنده فخرج إليهم يبغي إصلاحهم ووقف بينهم خطيباً (وهو الخطيب المسقع) متوكئاً على قوسه قائلاً: أنشدكم الله هل علمتم أحداً كان أكره للحكومة مني؟ قالوا: اللهم لا، قال: أفعلمتم أنكم أكرهتوني عليها حتى قبلتها؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فعلام خالفتموني ونابذتوني؟ قالوا: أول ما نقمنا منك أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل فلما انهزم أصحابه أبحت لنا أموالهم ولم تبح لنا نساءهم وذراريهم، وكيف تحل مال قوم وتحرم نساءهم؟ وكان ينبغي أن تحرم الأمرين معاً أو تبيحهما معاً.

فقال علي: إنما أبحت لكم أموالهم بدلاً عما أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي إليها، والنساء والذرية لم يقاتلونا وكان لهم حكم الإسلام ولم يكن منهم ردة. ولا يجوز استرقاق من لم يكفر. وبعد لو أبحت لكم نساءهم أيكم يأخذ عائشة من سهمه؟ فخجل القوم وانتقلوا إلى موضوع آخر. قالوا: نقمنا عليك أنك يوم التحكيم جعلت في كتاب الصلح: إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية حكما أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص. فلما قال معاوية: (لو نعلم أنك أمير المؤمنين ما خالفناك)

---

(1) حروراء: هي بلدة قريبة من الكوفة.

(2) سموا بهذا الاسم لأنهم كانوا يقولون: شرينا أنفسنا في طاعة الله، أي بعناها بالجنة، حيث إن شري من الأضداد.

محوت إمرة المؤمنين عن اسمك. فإن كانت إمامتك حقاً فلم رضيت به؟ فاعتذر أمير المؤمنين وقال: إنما فعلت كما فعل النبي ﷺ حين صالح سهيل بن عمرو[1] فقال له سهيل لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. ففعل النبي صلوات الله عليه. فكانت قصتي في هذا مع الأبناء قصة الرسول مع الآباء.

انتقل الخوارج إلى نقطة أخرى وقالوا: لم قلت للحكمين (إن كنت أهلاً للخلافة فاثبتاني، فإن كنت في شك في خلافتك فغيرك بالشك فيها أولى).

فقال علي: إنما أردت أن أنصف الخصم وأسكن الثائرة، ولو قلت للحكمين احكما لي لم يرض بذلك معاوية، وقد دعا الرسول ﷺ نصارى نجران إلى المباهلة وقال لهم: ﴿ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: 61] وإنما قال لهم ذلك على سبيل الإنصاف لا على سبيل التشكيك.

قالوا: لم حكمت الحكمين في حق كان لك؟

فقال علي: حكم رسول الله ﷺ سعد بن معاذ في بني قريظة، ولو شاء لم يفعل، وأقمت أنا كذلك حكماً، لكن حَكَمَ رسول الله ﷺ حكم بالعدل، وحَكَمِي خدع حتى كان من الأمر ما كان[2].

وبعد هذه المناقشة قالوا: إنا أتينا ذنباً عظيماً فتبنا إلى الله منه، وعادوا مع علي إلى الكوفة، أو عاد أكثرهم.

---

(1) لما صالح رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو العامري نائباً عن قريش في صلح الحديبية دعا علياً ليكتب فأملى عليه: بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل: اكتب بسمك اللهم فأمر عليه السلام بذلك. ثم أملى: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال عليه السلام: اكتب: هذا ما صالح محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو. ورد أن الرسول ﷺ محى بيده كلمة رسول الله وقال: ولك مثلها يا علي. فكان ذلك في كتاب الحكمين.

(2) التبصرة ص27. الفرق بين الفرق ص85.

ولكن بعد أن غرست في نفوسهم بزور الشقاق والخلاف، فكانوا كثير ما يطالبونه بالرجوع عما أبرمه مع أهل الشام، ولما أبى أن يجيبهم إلى ما سألوه أكثروا من التصاريح بـ (لا حكم إلاَّ الله) وبينما هو يخطب بمسجد الكوفة ويذكر أمر الخوارج قاطعوه بهذا النداء الذي تردد في جنبات المسجد (لا حكم إلاَّ الله) فضاق علي ذرعاً بهم وقال: الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل. إن تكلموا حاججناهم وإن خرجوا علينا قاتلناهم. فعز عليهم أن يسمعوا منه هذا التهديد فصاح به أحدهم قائلاً: أبالقتل تخوفنا يا علي، أما والله إني لأرجو أن نضربكم بها عما قريب، ثم لتعلم أينا أولى بها صلياً. وتسلل الصائح ومن معه فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي، فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج، وقال في آخر خطابه. فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه البلاد أو إلى أبعد هذه المدائن، منكرين لهذه البدع المضلة.

ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلاً فعرضوا الولاية على بعض المتميزين منهم فكلهم يأباها، ثم عرضوها على عبد الله بن وهب الراسبي فقال: هاتوها أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فراراً من الموت، فبايعوه لعشر خلون من شوال سنة 37هـ عام 657م، تم اتفقوا أن يخرجوا وحداناً مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهروان وكتب ابن وهب للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الأمر.

ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة علي إليه فبايعوه وقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت.

وفي هذه الآونة كان قد اجتمع الحكمان في دومة الجندل[1] وفشل التحكيم بأن أغرى

---

(1) لما لم يجد علي ﷺ بداً من التحكيم بعد أن روج له الأشعث بن قيس الكندي وأصحابه. اختار معاوية وأهل الشام عمرو بن العاص رضي الله عنه واختار علي عبد الله بن عباس. فقال الأشعث ومن معه لا نرضى إلا بابي موسى الأشعري. قال علي: ويحكم هو ليس بثقة قد فارقني وخذل الناس مني ثم هرب شهوراً حتى امنته. وعبد الله بن عباس أولى بها. فقال الأشعث وأصحابه والله لا يحكم فينا مضريان. قال علي: فالأشتر. قالوا وهل هاج هذا الأمر إلا الأشتر. قال علي: إذن اصنعوا ما شئتم فبعثوا إلى أبي موسى وقالوا له: إن الناس قد اصطلحوا. فقال: الحمد لله قالوا: وقد جعلوك حكماً قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. (مروج الذهب للمسعودي ج1 ص587) هذا وليس أبو موسى (على ما أوتي من علم وفضل) بكفء لعمرو بن العاص داهية العرب. =

= علاوة عن الوحشة بينه وبين علي ﷺ وطبيعي أن يفشل التحكيم بخديعة أبي موسى. فعلي خليفة شرعي لا يجوز عزله، ومعاوية إذ ذاك خارج على السلطان بدون مبرر فكانت المناقشة والنتيجة كما يلي: كان التقاء الحكمين بدومة الجندل. وكان جمع كبير قد حضر من الطرفين المتنازعين. كما حضر التحكيم بعض من لم يبايع علياً كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن عوف والمغيرة بن شعبة وغير هؤلاء.

فاختلى الحكمان وبعد خطب وكلام طويل قال عمرو: إن للكلام أولاً وآخراً. ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله. فاجعل ما كان بيننا من كلام في كتاب يصير إليه أمرنا. فاتفقا على ذلك ودعا عمرو بصحيفة وغلام له يكتب.

فكتب الغلام بأمرهما: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه عمرو بن العاص وأبو موسى. فقال له عمرو: لا أم لك، اتقدمني قبله كأنك جاهل بحقه. فبدأ باسم عبد الله بن قيس. وكتب: تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ثم قال عمرو: ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بكتاب الله وسنة رسول الله حتى قبضه الله إليه وقد أدى الحق الذي عليه. فقال أبو موسى: اكتب. ثم قال في عمر مثل ذلك.

ثم قال عمرو: وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين، وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى منهم وأنه كان مؤمناً. فقال أبو موسى: ليس هذا مما قعدنا له. فقال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً. قال أبو موسى: بل مؤمناً. فكتب ذلك. قال عمرو فظالماً قتل عثمان أو مظلوماً؟ قال أبو موسى: بل مظلوماً. فكتب ذلك. فقال عمرو: أو ليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى نعم: فكتب. قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لا. قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى. قال عمرو: فإنا نقيم البينة أن علياً قتل عثمان. فقال أبو موسى: إنما اجتمعنا لغير ذلك. قال عمرو: وما هو. قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً. فهلم نخلعهما جميعاً. ونستخلف عبد الله بن عمر (وكان عبد الله بن عمر متزوجاً بنت أبي موسى) فقال عمرو: أيفعل ذلك عبد الله بن عمر؟ قال أبو موسى: نعم، إذا حمله الناس على ذلك. فصوب عمرو الخلع. وقال: هل لك في سعد؟ قال أبو موسى: لا. قال: ففي عبد الله عمرو بن العاص؟ قال أبو موسى: لا. فعدد عمرو جماعته وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر. فأخذ عمرو الصحيفة بعد أن ختماها وطواها وقال أما إذا رأيت الصلاح في هذا الأمر والخير للمسلمين فقم فاخطب الناس. وخلع صاحبينا معاً. وتكلم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه. فقال أبو موسى بل أنت اخطب. قال عمرو: لا أحب أن أتقدمك. فقم راشداً. إما أن ترضى الناس بالذي ذكرت أو يختاروا من يشاؤون.

فقام أبو موسى بين الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه. وصلى على نبيه ﷺ ثم قال: أيها الناس: إنا قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما نكون من الأمن والصلاح ولم الشعث وحقن الدماء وجمع الألفة أن نخلع علياً ومعاوية. وقد خلعت علياً كما خلعت عمامتي هذه (وخلع عمامته) واستخلفنا رجلاً قد صحب رسول الله ﷺ بنفسه وصحبه أبوه. وهو عبد الله بن عمر. فأطراه ورغب فيه الناس ثم نزل.

فقام عمرو. فحمد الله وأثنى عليه. وصلى على رسوله ﷺ ثم قال: أيها الناس: إن أبا موسى عبد الله بن قيس =

عمرو أبا موسى على خلع علي واعداً بأنه يخلع معاوية أيضاً، ثم يتفق المسلمون على خليفة، فخلع أبو موسى علياً ونصب عمرو معاوية فتهاترا وبطل التحكيم.

ولما بلغ علياً نتيجة التحكيم خطب أهل الكوفة فقال في خطابه: الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل، ثم بين نتيجة التحكيم وقال للقوم من شيعته: استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الإثنين.

وكتب إلى الخوارج يدعوهم إلى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا إليه: (أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين).

فلما قرأ علي ﷺ كتابهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير إلى الشام، فخرج حتى عسكر بالنخيلة، ومن هناك كتب إلى ابن عباس يأمره أن يرسل إليه جند البصرة، وإلى أمير المدائن أن يرسل إليه جندها، فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندي، هناك بلغه أن الناس يقولون لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأناهم فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام فخطبهم قائلاً:

إن قتال أهل الشام أهم، فتنادى الناس: يا أمير المؤمنين سر بنا إلى ما أحببت فنحن معك. ولكن الخوارج ركبوا رؤوسهم واستعملوا العنف وقتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت وفي عنقه المصحف ومعه امرأته، بعد حوار طويل جرى بينهم وبينه يفيض بالحكمة من جانب خباب وبالفظاظة والغلظة من جانب الخوارج[1] فلما بلغ

= قد خلع علياً وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به. ألا إني قد خلعت علياً معه. وأثبت معاوية عليَّ وعليكم. . ثم ذكر معاوية وأثنى عليه ورغب فيه. ثم نزل.

فقال أبو موسى كذب عمرو لم نستخلف معاوية. . فتهاترا وتسابقا وتفرق القوم فاشلين.

راجع مروج الذهب للمسعودي ج1 ص593 وما بعدها.

(1) كان خباب وأبوه صحابيان فطلبوا منه أن يسمعهم حديثاً سمعه من أبيه عن رسول الله ﷺ فقال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والواقف فيها خير من السائر والماشي خير من العادي ومن أمكنه أن يكون مقتولاً فلا يقصدنّ أن يكون قاتلاً. فلما سمع الخوارج منه ذلك قتلوه ثم قصدوا بيته وقتلوا أولاده وأمهات أولاده.

علياً ذلك أرسل رسولاً ليعلم جلية الخبر فقتله الخوارج، وأيضاً قابلوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً وقالوا: احفظواذمة نبيكم، وهي مغالطة صريحة لأن الحق أن يحفظوا روح المسلم والذمي على السواء. ولما بلغت تلك الأخبار معسكر علي ﷺ قال الناس: يا أمير المؤمني! علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا، سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام، فلم يجد بداً من موافقتهم، ونادى بالرحيل إلى الحروريين، فلما وصل أرسل إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم، ثم أنا تاركككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم. فبعثوا إليه: كلنا قتلهم وكلنا يستحل دماءهم ودماءكم.

ولم تنجع بهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التي نطق بها وهم يسمعون، فرفع راية مع أبي أيوب الأنصاري[1] ونادى من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، إنه لا حاجة لنا بعد أن ينصرف قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم، فانصرف منهم جمع وخرج إلى علي جمع وبقي مع ابن وهب 2800 رجل من أصل 4000 أربع آلاف، فدارت رحى الحرب بين الفريقين وانتهت في ذلك اليوم بقتل رئيسهم عبد الله بن وهب الراسبي ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من 400 فأمر بهم علي فدفعوا إلى عشائرهم.

ولما تم لعلي ﷺ الظفر قال للناس: توجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم، فقالوا: يا أمير المؤمنين! نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا فسار بهم حتى نزل النخيلة[2] فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على

---

(1) المصادر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم -الملل والنحل للشهرستاني- الفرق الإسلامية للدكتور أحمد مجاهد مصباح والدكتور محمود محمد زيادة -تاريخ الفرق للدكتور محمد العزابي ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري- إسلام بلا مذاهب للدكتور شكعة. وغير ذلك.

(2) اسم مكان قريب من الكوفة.

الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يصيروا إلى عدوهم، فأقاموا هناك أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا بيوتهم إلاَّ رجالاً من وجوه الناس، وتركوا المعسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير وكان يجمعهم في أغلب الأيام ويلقي عليهم الخطب الرنانة يحثهم على القتال، وأقلهم من نشط.

استشهاد علي رضي الله عنه

وفي هذه الظروف العصيبة اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي، فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر[1] فترحموا عليهم، وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا. فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب. وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان سنة أربعين هجرية أن يثب كل على صاحبه الذي توجه إليه. وأقبل كل واحد منهم المصر الذي فيه صاحبه. فأما ابن ملجم المرادي الخبيث خرج حتى أتى الكوفة ولم يخبر من بها من إخوانه شيئاً كراهة أن يظهر، وكان بالكوفة جماعة من تيم الرباب، قتل منهم علي ﷺ يوم النهر عشرة، وفيهم امرأة يقال لها قطام ابنة الشجنة، قتل علي أباها وأخاها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها ابن ملجم أذهلته عما جاء له فخطبها لنفسه فقالت لا أتزوجك حتى تشفي غليلي قال: وما يشفيك؟ قالت: ثلاث آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب، قال: هو لك مهر أما علي أراك ذكرته لي وأنت لا تريدينني، قالت: بل التمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي، وإن قتلت فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها، فقال: والله ما جئت هذا المصر إلا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر.

---

(1) أي تذكروا ما حل بأصحابهم في وقعة النهروان.

ولما كانت ليلة الجمعة 15 رمضان سنة 40 بينما كان علي ﷺ نائماً رأى في منامه النبي ﷺ فقال له: هل بلغك يا رسول الله ما فعلت أمتك معي؟ فقال رسول الله ﷺ: بلغني كل شيء، فإن شئت دعوتُ لك فنصرت عليهم، وإن شئت تغذيت عندنا فأجاب علي: بل أتغذى عندكم، فاستيقظ على ذلك، فأوّل ذلك أنه ميت وشيكاً، فأحدث وضوءه ولبس ثيابه وبينما هو يلبس نعله جعل يقول:

اشدد حذاءيك للموت فإن الموت لاقيك

ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك

وذهب يريد المسجد لصلاة الصبح وكان ابن ملجم خلف باب الجامع حتى إذا دخل علي الباب ضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهو يقول: الحكم لله لا لك ولا لأصحابك. ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلي يقول: لا يفوتنكم الرجل. فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه. وأعادوا علياً إلى بيته متأثراً.

فدخل الناس على علي فقالوا له: إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن؟ قال: ما أمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر. ثم أوصى أولاده.

وفي يوم الأحد 17 رمضان عام 40 هـ توفي ﷺ وأرضاه بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلاّ أياماً قضاها في ذلك العناء وشدة الجهد. ودفن في الكوفة التي كانت حاضرة خلافته[1].

أما البرك بن عبد الله فإنه قعد لمعاوية في ذلك اليوم الذي غدر فيه علي، فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف في أليته ودوى من الضربة فبرئ ولكنه لم يأته ولد بعد تلك الضربة، وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشُّرط على رأسه إذا سجد. وفي ذلك قال معاوية:

نجوت وقد بل المرادي سيفه من ابن أبي شيخ الأباطح طالب

---

(1) تاريخ محاضرات الأمم الإسلامية وغيره من المصادر ج2 ص80.

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج لأنه كان شاكياً، وصلى بدله خارجة بن حذافة - وكان صاحب شرطته - فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو. فقالوا: أراد عمراً وأراد الله خارجة.

وهذه المؤامرة على زعماء المسلمين بدون تمييز تدل على أن الخوارج كانوا في حقد أسود على جميع المسلمين سوى من وافقهم على الخروج، وهذا كان واقع حالتهم كما سيأتي.

الحسن بن علي رضي الله عنهما

بايع الشيعة الحسن بن علي رضي الله عنهما بعد مقتل أبيه ولكن الرجل نظر إلى الظروف التي هو فيها نظرة صائبة، وجد جنداً لا يركن إليه، وخصماً قوي الشكيمة - هو معاوية - وفوق هذا وذاك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الألفة فلم يرَ خيراً لنفسه ولأمته من أن يتنازل لمعاوية، فصالحه على شروط رضيها الطرفان فتم الأمر لمعاوية رغم كراهية الشيعة والخوارج على السواء.

الخوارج ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما

تولى معاوية أمر الأمة وهي أقسام ثلاثة:

1 - أنصار بني أمية الذين نصروا معاوية من أهل الشام ومن غيرهم من سائر الأمصار.

2 - شيعة علي بن أبي طالب ﷺ وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالأمر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم، ومعظم هؤلاء الفريقين كانوا ببلاد العراق وقليل منهم بمصر.

3 - الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين من الدين وهؤلاء أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون، يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه، وقتال شيعة علي؛ لأن كلاً قد ألحد على زعمهم في الدين.

ومثل هذه الأمة المتفرقة تحتاج إلى سياسة حكيمة في إدارة شؤونها وإفاضة ثوب الأمن

عليها. أما معاوية نفسه فلم يكن أحداً أوفر منه يداً في السياسة فهو صانع رؤوس العرب بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه وكانت غايته في الحلم لا تدرك.

وكان أعظم شيء يهمه أمر الخوارج، لأنهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة لأنهم قوم غلوا في الدين غلواً عظيماً وفهموا كثيراً منه على غير وجهه ففرقوا كلمة الأمة واستعرضوا الأنفس والأموال.

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الأشجعي معتزلاً في 500 من الخوارج، فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيوف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة، فأرسل إليهم معاوية جيشاً من أهل الشام فانهزم الجيش أمام الخوارج الأشداء، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم عندي حتى تكفوني الخوارج، فخرج إليهم أهل الكوفة وقاتلوهم وقبض بنو أشجع على صاحبهم فروة وأدخلوه الكوفة قهراً، فولى الخوارج أمرهم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي، فقاتل قتال المستميت فهدد بالصلب فقال:

ما أن أبالي إذا أرواحنا قبضت ... ماذا فعلتم بأوصال وأبشار

تجري المجرة والنسران عن قدر ... والشمس والقمر الساري بمقدار

وقد علمت وخير القول أنفعه ... أن السعيد الذي ينجو من النار

من هنا نعلم أن القوم كانوا يقاتلون عن عقيدة خاطئة وشجاعة منقطعة النظير. قتل ابن الحوساء فولى الخوارج أمرهم لحوثرة الأسدي، فجمع فلول الخوارج وكانوا لا يزيدون على 200 رجل فثبتوا في الحرب ثبوت الأبطال، فقال معاوية لأبي حوثرة: إكفني شر ابنك، فأقبل إليه والده فدعاه إلى الرجوع فأبى فأداره فصمم، فقال: يا بني أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه، فقال: يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة أنقلب فيها على كعوب الرمح أشوق إلي مني إلى ابني.. ما أغرب هذا من شجاعة وتصميم!!

ولما نظر حوثرة إلى جموع أهل الكوفة قال: يا أعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه، واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه، فخرج إليه أبوه فدعاه إلى المبارزة فقال: يا أبت لك في غيري مندوحة ولي في غيرك مذهب. ثم حمل

على القوم حملة شجاع قوي وهو يقول:

أكرر على هذي الجموع حوثرة　　　عن قريب ستنال المغفرة

فحمل عليه رجل من طيء فقتله، فرأى أثر السجود وقد لوح جبهته فندم على قتله. مما ذكر نعلم القوة والشجاعة والعزيمة التي تحلى بها الخوارج مع العقيدة الفاسدة.

هذا وقد أشغلوا معاوية طول حياته. ولكن خفت حدتهم حين ولى على الكوفة والبصرة أمراء أقوياء أشداء أمثال زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة وعبيد الله بن زياد.

وأطرف ما كان من الخوارج في هذا الفترة أن معاوية ولى عبيد الله بن زياد البصرة سنة 55 وقد اشتد على الخوارج شدة لم يفعلها أبوه زياد ولا المغيرة فقتل منهم سنة 58 جماعة كثيرة صبراً[1] وفي الحرب جماعة أخرى، وممن قتل صبراً عروة بن أدية أخو أبي بلال مرداس بن أدية، فخرج أخوه مرداس في أربعين رجلاً بالأهواز فبعث إليهم ابن زياد جيشاً عدته ألفان وعليهم ابن حصين التميمي فهزمهم الخوارج الأربعون شر هزيمة فقال شاعرهم:

أألفا مؤمن فيما زعمتم　　　ويقتلكم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم　　　ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم　　　على الفئة الكثيرة يُنصرونا

ظل ابن زياد والياً على العراق زمن يزيد بن معاوية، وهو الذي أرسل جيشاً لقتال سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما ولم يطل ملك يزيد بل مات فاضطربت الدولة وبويع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما خليفة على الحجاز وغيرها. فقويت شوكة الخوارج، بل لو استطاع ابن الزبير استغلال الخوارج لقضي على الدولة الأموية في مهدها.

الخوارج وابن الزبير ﷺ:

في زمن يزيد بن معاوية وبعد استشهاد الحسين ﷺ وبعد أن بويع ابن الزبير بالخلافة

---

(1) صبراً: أي بعد اعتقالهم.

في مكة وغيرها أرسل يزيد جنود الشام إلى مكة لقتال ابن الزبير، عندها رأى جماعة من الخوارج أن يذهبوا إلى مكة ليمنعوها من جنود الشام، ولكنهم أرادوا أن يتعرفوا على رأي ابن الزبير هل هو على رأيهم أم لا؟ فأتاه جماعة منهم نجدة بن عامر الحنفي[1]، ونافع بن الأزرق الحنفي[2]، فدخلوا عليه فعرفوه بأنفسهم ثم قالوا: جئناك لتخبرنا رأيك، ما تقول في الشيخين؟ قال: خيراً، قالوا فما تقول في عثمان الذي حمى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين[3] وفي الذي بعده الذي حكّم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم، وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو إمام عادل لم يظهر منه كفر ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا، وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن في بيوتهن وأنت أعنت وكان في ذلك ما يدعوك إلى التوبة. فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا، ونسأل الله لك التوفيق. وإن أنت أبيت إلاّ نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولي في السنين الست التي أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت إمامته خذلك الله وانتصر منك بأيدينا. فقال ابن الزبير: إن الله أمر - وله العزة والقدرة - في مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا، فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما في فرعون ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ وقال رسول الله ﷺ: لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات. فنهى عن سب أبي جهل إكراماً لابنه عكرمة وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول، والمقيم على الشرك وكفى بالشرك ذنباً، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا: أتبرأ من الظالمين؟ فإن كانا منهم دخلا في غمار الناس وإن لم يكونا

---

(1) رئيس فرقة النجدات فيما بعد.

(2) رئيس الأزارقة فيما بعد.

(3) يريدون بحمى الحمى أي الكلأ العام. والطريد هو الحكم بن أبي العاص طرده الرسول إلى الطائف فرجع في زمن عثمان. ويريدون الكتاب الذي زوره مروان على لسان عثمان لأهل مصر. وبآل معيط يريدون الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان أخاً لعثمان لأمه.

منهم لم تؤذوني بسبّ أبي وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن في أبويه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ وقال جل ثناؤه: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ وهذا الذي دعوتم إليه أمر له ما بعده، وليس يقنعكم إلا التصريح والتوقيف ولعمري إن ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه، فروحوا إليَّ من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه.

فلما كان العشي راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه وخطبهم خطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل ما يعتد به عليهم، فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا، فصارت طائفة منهم إلى البصرة وطائفة إلى اليمن. فكان ممن سار إلى البصرة نافع بن الأزرق[1].

هذه المحاورة بينهم وبين ابن الزبير ﷺ. وهذه الاستفسارات يبدو منها أنهم يحترمون أبا بكر وعمر، ويحملون على عثمان خصوصاً في أيامه الأخيرة ويجلون علياً قبل وقعة صفين، ثم هم يكفرون الزبير وطلحة ويضعون عائشة رضي الله عنها موضعاً غير كريم. وهكذا نجد أكثر الخوارج إن لم نقل جميعهم.

تسمية الخوارج

يقول بعض مؤرخي الفرق: إن كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة (خارجيٌّ) سواء كان الخروج في أيام الخلفاء الراشدين أو على الأئمة في كل زمان[2] ولكن الخوارج الذين ندرس عقائدهم هم الذين خرجوا على علي بن أبي

---

(1) محاضرات الأمم الإسلامية للخضري ج2 ص149-150 والملل والنحل للشهرستاني ج1 ص168 على هامش الفصل لابن حزم.

(2) الملل والنحل ج1 ص85 من طبع أوربا.

طالب ﷺ كما يقول أبو الحسن الأشعري[1].

وهؤلاء الخوارج لهم ألقاب عدة عرفوا بها بـ (الحرورية) لأنهم انحازوا إلى حروراء[2] ولقبوا (بالشراة) لأنهم قالوا شرينا أنفسنا في طاعة الله، وسموا (بالمارقة) بمعنى أنهم مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية. وهذا اللقب أبغض الألقاب إليهم، ولقبوا (بالمحكمة) لأن شعارهم الأساسي (لا حكم إلاّ الله)[3]، ولقب (الخوارج) أجمع لقب لهم لأن هذه الكلمة تصح أن تكون وصفاً لجميع فرقهم.

فهم الخوارج الخاطئ وبساطة تفكيرهم

كان أكثر من اعتنق مذهب الخوارج أول الأمر عرباً سكنوا الكوفة والبصرة بعد الفتح. وكان كثير منهم من تميم وقد انضم إليهم بعض الموالي[4] لاشتراكهم في بغض الأمويين. واعتقادهم في وجوب الخروج عليهم حتى تزول دولتهم. غير أن المنضمين من الموالي كانوا قليلي العدد، لتعصب الخوارج (ومعظمهم من البدو) لجنسيتهم. فكانوا لهذا يحتقرون الموالي. والخوارج مطبوعون إلى درجة كبيرة بالصبغة البدوية في محاسنها ومساوئها؛ فهم كثيرو الخلاف على الأمراء، محدودو النظر، ضيقو الفكر، وهم مع ذلك شجعان إلى أقصى حدود الشجاعة صرحاء في أقوالهم وأفعالهم. أسهل شيء عليهم أن يبيعوا أنفسهم لعقيدتهم هازئين بما يتشبث به الشيعة من تقية، حتى كان الواحد منهم يسعى إلى قاتله وهو يقول: (وعجلت إليك ربي لترضى).

وكانوا - لغلبة البداوة عليهم - أبعد ما يكونوا عن التطور الديني والعلمي والاجتماعي. فهم يمثلون الإسلام على فطرته قبل أن تدخل فيه تعاليم الأمم والديانات

---

(1) مقالات الإسلاميين ج1 ص127.

(2) كورة قريب من الكوفة.

(3) هذا الشعار أول من نطق به هو الحجاج بن عبيد الله الملقب بالبرك، وهو الذي ندب نفسه لاغتيال معاوية وضربه على إليته، الملل والنحل ج1 ص160.

(4) يقصد بالموالي هنا من دخل في الإسلام من غير العرب.

الأخرى. فلولا ما في بعض معتقداتهم من شذوذ لوجدناهم على الدين السليم، لا يبحثون في صفات الله تعالى هل هي عين الذات أو غير الذات. وهل يرى الله تعالى بالأبصار يوم القيامة أو لا يرى (كما بحث المعتزلة) لأنها نظريات فلسفية لا تتفق والبداوة الغالبة على الخوارج. ولكن المذاهب الأخرى (كالمعتزلة وأهل السنة. وغيرهم) قد تفلسفت في العصر العباسي الذي كانت تشع فيه الفلسفة نتيجة حركة الترجمة المزدهرة. فكانت كل فرقة تأخذ منها بالقدر الذي يتفق مع أصولها، ولم يتسن للخوارج أن يظفروا بشيء من ذلك. فقد صادف عصر الترجمة مع عصر احتضار الخوارج، بعد أن أنهكوا الدولة الأموية وأنهكتهم.

ولم يقدس الخوارج أئمتهم كما فعلت الشيعة، فقد كانوا ينظرون إلى الرؤساء نظرة البدوي إلى شيخ القبيلة، ومن أثر بساطتهم في التفكير التزامهم ظواهر الكتاب والسنة من غير تأويل أو قياس. وقد أوقعهم ذلك فيما لا يستسيغه الذوق السليم، فكان منهم من يرى أن أكل مال اليتيم ظلماً يوجب النار لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: 10] أما قتل اليتيم أو بقر بطنه فلا يوجب ذلك لعدم النص عليه. ومنهم من استحل دماء أطفال المسلمين من غير الخوارج ولم يستحل أكل ثمرة من غير ثمنها!. ومن طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وتواصوا بالنصراني فقالوا: احفظوا ذمة نبيكم. فعصموا دم الذمي وأهدروا دم المسلم المخالف لهم. ولما التقوا بعبد الله بن خباب (الذي أشرنا إليه) وهموا بقتله، أراد رجل منهم أن يأكل رطبة من داره فصاحوا به فلفظها تورعاً. وقد روى المبرد في كتابه الكامل أن واصل بن عطاء زعيم المعتزلة وقع مع بعض أصحابه في يد الخوارج، فقال واصل لأصحابه دعوني وإياهم. ثم خرج إليهم فقالوا: (ما أنت وأصحابك؟) قال: مشركون مستجيرون لنسمع كلام الله ونعرف حدوده. قالوا: قد أجرناكم. قال: فعلمونا. فجعلوا يعلمونه أحكامهم، وهو يقول: قد قبلنا، حتى قالوا: فامضوا مصاحبين قد صرتم إخواننا. قال: ليس ذلك إليكم فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾

[التوبة: 6] فأبلغونا مأمننا. فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا: (ذاك لكم) وساروا معهم حتى أبلغوهم مأمنهم.

وغير ذلك من مناقضات هؤلاء كثير. ولو أنهم خاضوا فيما وراء الظواهر واستعملوا عقولهم في قياس الأشباه بالنظائر لما تردوا في تلك الأخطاء التي تحقق بها قول الرسول ﷺ فيهم: (تحقر صلاة أحدكم في جنب صلاتهم وصوم أحدكم في جنب صيامهم ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم).

وكما تشدد الخوارج في العبادة تشددوا كذلك في معاملة مخالفيهم من المسلمين حتى كان الكثير منهم لا يرحمون الطفل الرضيع، ولا المرأة الضعيفة، ولا الشيخ الفاني، ولم يرضوا من المخالفين أن يقولوا إن علياً أخطأ في التحكيم، وإن عثمان قد أخطأ فيما أحدث، بل لا بد من الإقرار بكفرهما وكفر من ناصرهما من المسلمين، وقد مر بنا أنهم طلبوا من عبد الله بن الزبير أن يتبرأ من أبيه، ولم يكتفوا من عمر بن عبد العزيز بعدله وسيرته الحسنة بل طالبوه أن يتبرأ من الذين تبرؤوا منهم، وأن يلعن أسلافه من بني أمية. وكان هذا التشدد الخارج عن الحد المعقول مشوهاً لهذه الجماعة.

كان الحسن البصري يوافق الخوارج في رأيهم بأن علياً قد أخطأ في التحكيم وكان بعيداً عن مذهبهم، وكان إذا جلس في مجلس علم ذكر عثمان فترحم عليه ثلاثاً ولعن قتلته ثلاثاً. ويقول لو لم نلعنهم للعنا. ثم يذكر علياً فيقول: لم يزل أمير المؤمنين علي رحمه الله يتعرف النصر ويساعده الظفر حتى حكَّم، فلِمَ تُحكم والحق معك؟ ألا تمضي قدماً؟ لا أبا لك. وأنت على الحق.

آراء الخوارج الجامعة بين فرقهم:

بدأ الخوارج حديثهم في أمور تتعلق بالخلافة فاعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر. وبشطر من خلافة عثمان حتى حابى وغير وبدل فكفروه ونقضوا بيعته. ثم اعترفوا بخلافة علي حتى حكَّم الرجال فكفروه. و كفروا الحكمين. وكفروا أصحاب الجمل. وانتقلوا من هذا إلى القول بأن الولاة الظلمة من معاوية وقومه كفار. يجب

أن يقابل كفرهم وظلمهم بالخروج عليهم جهاراً.

كانوا يخالفون الشيعة في أمرين أساسيين:

الأول: بينما يبالغ الشيعة في تقديس علي يكفره هؤلاء ويمجدون قاتله عبد الرحمن بن ملجم.

الثاني: بينما يتواصى الشيعة بالتقية (المصانعة والمداراة) ويجعلونها مبدأ أساسياً من مبادئهم يأبى هؤلاء العمل بها ويوجبون الخروج على السلطان الجائر مهما كانت الظروف والنتائج.

كان الخوارج يرون أن أحق الناس بالخلافة أصلحهم لها؛ عربياً كان أو أعجمياً. قرشياً أو غير قرشي. وإنما يجب أن تكون الخلافة باختيار حرٍّ من المسلمين ولو كان المختار عبداً حبشياً ولذا أمَّروا عليهم أول أمرهم عبد الله بن وهب الراسبي ولم يكن قرشياً. وإنما كان من راسب. وإذا اختير الأمير فليس له الحق أن يتنازل أو يحكم، وعليه أن يخضع لما أمر الله، فإذا سار فيهم سيرة لا تتفق ومصلحة المسلمين فقد وجب عزله أو قتله. وهم بهذا يمثلون الجبهة الديمقراطية في الإسلام، ولا يعترفون بتوارث الخلافة التي سار عليها الأمويون والعباسيون. والشيعة، وكان الخوارج مع هذا يرون أن العمل بأوامر الدين جزء من الإيمان، فليس الإيمان عقيدة فحسب وإنما هو عقيدة وعمل، فمن ارتكب الكبائر من المسلمين فهو كافر. واتفقت كلمة الخوارج على ذلك ما عدا النجدات فقد جعلوا كفر مرتكب الكبيرة كفر نعمة لا كفر دين.

وهم في هذا الموقف أشد من المعتزلة الذين يقررون أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر. وكانت خشية الخوارج من الله تثير في نفوسهم التحمس للحق وشدة التمسك بحرفية أوامر الله. وأرادوا لهذا أن الواجب عليهم ليس عمل الخير وترك الشر فقط بل أن يمثل لذلك الآخرون. فجعلوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينفذ بحد السيف. وظلوا مخلصين لهذا المبدأ.

والخوارج بجميع فرقهم لا يحبون الكذب ويتبرؤون من الكذاب.

انقسام الخوارج إلى فرق كثيرة

قلنا في ما مر: إن الخوارج قد أظهروا نشاطهم الحربي والعقائدي، وأما رأيهم في السياسة فكانوا يؤمنون بالجمهورية العربية الديمقراطية، وكانوا يعتبرون الأمويين والزبيريين أرستقراطية كافرة، ولذلك دوخوا قواد الأمويين وفي مقدمتهم زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والمهلب بن أبي صفرة والحجاج بن يوسف الثقفي، وأظهروا نشاطاً على مسرح الدولة الإسلامية فترة طويلة من الزمن، وخاضوا المعارك في كثير من البلاد ولاسيما بلاد العراق، ومع انقسامهم وتناحرهم فقد أمكن لهم أن يصمدوا على المسرح الحربي حتى أوائل القرن الثاني الهجري، فدوخوا الدولة الأموية وفرضوا سلطانهم على مساحات واسعة من أرض الدولة، وجبوا الأموال.

ولكن تخالفهم فيما بينهم وتناحرهم وكثرة الانقلابات الداخلية في الفرقة الواحدة منهم وتطرف بعضهم إلى درجة استحلال دماء النساء والأطفال، واستنكار البعض الآخر لهذا المسلك، كل ذلك قد بدد شملهم وفرق جمعهم، ولولا ذلك لاستطاعوا السيطرة على جميع الدولة الإسلامية لشجاعتهم النادرة. غير أنه بينما يكونون على رأي واحد لا يلبث أن يحصل بينهم خلاف - ولو بسيط - حتى ينقسموا ويخرجوا على إمامهم فيعزلوه أو يقتلوه، كما قتل النجدات (نجدة ابن عامر) قتله رجل من طائفته اسمه أبو فديك، لذلك تفرقت جماعتهم إلى فرق كثيرة لم يتفق المؤرخون على عددهم، فقد جعلهم الإسفراييني اثنتين وعشرين فرقة، منهم سبع فرق أصلية والباقي فرعية، ونحن نقتصر على أشهرهم فنقول:

أشهر الفرق من الخوارج

1 - الأزارقة:

هم أتباع نافع بن الأزرق الحنفي المكنى بأبي راشد.

قدمنا أن نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر[1] قد اجتمعا بمكة (مع جمع من الخوارج) بعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وعرضا عليه آراء الخوارج، فلم يوافق على أي رأي من آرائهم، عندها تفرقوا عنه، فاختلف نافع ونجدة فصار نافع إلى البصرة ونجدة إلى اليمامة، وكان سبب اختلافهما أن نافعاً قال: التقية لا تحل[2]. والقعود عن القتال كفر. واحتج بقوله تعالى: ﴿تُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: 54] وخالفه نجدة وقال: التقية جائزة، واحتج بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: 28] وبقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: 28]، وقال: القعود جائز والجهاد إذا أمكنه أفضل لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95].

قال نافع: هذا في أصحاب رسول الله ﷺ حين كانوا مقهورين، وأما في غيرهم مع الإمكان فالقعدة كفر لقوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: 90] أ. هـ: الشهرستاني.

أمَّر الخوارج الأزارقة عليهم نافع بن الأزرق ولقبوه بأمير المؤمنين عندما صمموا على القيام بأمر إيجابي ينفذون به فكرتهم، في محاربة الظلم والطغيان، وخرج بهم نافع إلى الأهواز أيام عبد الله بن الزبير في نهاية شوال عام 64هـ وكان عددهم في أول أمرهم 350 رجلاً لم يلبث أن انضم إليهم خوارج اليمن وعمان فأصبحوا بعد قليل ثلاثين ألفاً، فكانوا لهذا أكثر الخوارج عدداً وأعظمهم شوكة.

---

(1) الملل والنحل لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني ج1 ص168 على هامش الفصل في الملل والنحل لعلي بن حزم الظاهري.

(2) التقية: معناها أن يحافظ المرء على عرضه ونفسه وماله مخافة عدوه فيظهر غير ما يبطن، فهي مداراة وكتمان، وهي مبدأ أساسي عند الشيعة كما سيأتي إن شاء الله.

غلب الأزارقة على الأهواز وإقليم فارس وكرمان فقتلوا ولاتها وجبوا خراجها واتخذوها دار هجرة وأقاموا فيها فترة لا يهيجون أحداً، وهم على رأي واحد تقريباً، ولكن نافعاً طغى وبغى واستعرض المسلمين من غير فرقته واستباح سفك دماء النساء والأطفال متأولاً فيهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 27].

وأعلن أن دار مخالفيه دار كفر وأنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تجوز مناكحتهم ولا توارث معهم ولا تراعى أماناتهم، وأضاف إلى ذلك إعلانه البراءة من قعدة الخوارج أي الذين لا يحاربون من خالفهم.

لما مال نافع إلى ذلك وجهر به تصدعت وحدة الخوارج، وكان من مظاهر هذا التصدع أن خرج عليه فريق ممن كانوا معه، وأعلنوا البراءة منه واتجهوا إلى اليمامة منضمين إلى نجدة بن عامر[1] الذي هاله ما أقدم عليه نافع، فكتب إليه يدعوه إلى ترك ما أحدث وبين له أنه قعد على عهد رسول الله ﷺ قوم فلم يكفروا، وأنزل الله عز وجل ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[النساء: 95].

فأبى نافع الرجوع عما جهر به وكتب إلى نجدة يسفه رأيه ويصفه بالخور والضعف. ولم يكن نجدة وحده هو الذي كتب إلى نافع يسفه رأيه، وإنما كتب إليه كذلك عبد الله بن أباض[2]، ينكر عليه قتل الأطفال وتكفيره القعدة من الخوارج واستحلاله أموال مخالفيه قبل المحاربة، وكان من رأي ابن أباض هذا أن نافعاً قد كفر لغلوه في الدين.

---

(1) هو زعيم فرقة النجدات.

(2) عبد الله بن أباض زعيم الاباضية.

بذلك تصدعت وحدة الخوارج وكفر بعضهم بعضاً وثبت مع نافع جماعات هم الذين عرفوا بالأزارقة وقد كانوا أشداء الشكيمة[1] أقوياء في البأس والإقدام.

وجه أمير العراق لحربهم سرية من ألف رجل أبادهم الأزارقة ثم أردفها بثلاثة آلاف فاقتتلوا شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وتقاتلوا بالسيوف والغمد. وتعددت الاشتباكات حتى قتل نافع بن الأزرق، لكن الأزرق لم تنهزم، بل ولوا أمرهم إلى عبيد الله بن بشير الذي قدر له أن يصطدم بجموع من أهل البصرة بقيادة المهلب بن أبي صفرة فقتل زعيم الخوارج عبيد الله فأسند الأزارقة أمرهم إلى قطري بن فجاءة الفارس الشاعر، فقبلها بعد تردد ثم قال: والله لا أدعها خوفاً من موت ولا آخذها طمعاً في دنيا، واستمر الحرب سجالاً يقرب من تسعة عشر عاماً، يخوضها الأزارقة بكل شجاعة وتصميم، ويظهر ذلك جلياً من قول زعيمهم قطري في قصيدته التي يقول فيها:

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو طلبت الخلد يوماً ... عن الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع
فإن الموت غاية كل حي ... وداعيه إلى الهيجاء داعي

فياليت هذه الشجاعة كانت إيجابية على الأعداء، ولكنها ويا للأسف كانت سلبية، الأخ يقف أما أخيه في الدين والوطن والعروبة ووحدة التاريخ والهدف.

ولما طالت زمن الحرب وتجرأت بعض الفرق الأخرى من الخوارج على الدولة الأموية، رأى عبد الملك بن مروان أن يولي أمر العراق رجلاً قوياً شديداً فاختار لذلك الحجاج بن يوسف الثقفي.

كان المهلب بن أبي صفرة يحارب الأزارقة المارقة بشجاعة وإقدام وكفاءة سياسية

---

(1) الشكيمة في اللجام: هي الحديدة المعترضة في فم الفرس، وشديد الشكيمة: شديد النفس أنفاً أبياً.

وحرية، ولكن جيشه كثيراً ما كان يتمزق أمام هجمات الخوارج المنكرة، وترك الكثير من الجنود جبهات القتال وملوا وخلدوا إلى الراحة والعيال إلى أن أتى الحجاج.

في عام 75هـ ولى عبد الملك الحجاج على العراقين (البصرة والكوفة) فسار إلى الكوفة فدخلها متلثماً بعمامة خز حمراء، فبدأ في المسجد فاجتمع إليه الناس، فصعد المنبر فسكت وأطال السكوت حتى أراد بعضهم أن يحصبه[1] ثم كشف اللثام عن وجهه وقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني لأنظر إلى الدماء تَرَقْرَق بين العمائم واللحى ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدي زيم[2] قد لفها الليل بسواق حطم[3]

وليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم[4]

ثم قال:

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وترعرد[5] مثل ذراع البكر أو أشد

لا بد مما ليس منه بد

فهدد وأوعد ثم قال: إن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلاَّ ضربت عنقه، ثم أمر بقراءة كتاب أمير المؤمنين ثم نزل فوضع للناس عطاءهم.

فأتاه شيخ يرعش كبراً فقال: أيها الأمير! إني من الضعف ما ترى ولي ابن هو

---

(1) قال عمير بن ضابئ البرجمي: ألا أحصبه لكم: أي يضربه بالحصا.

(2) يعني فرساً.

(3) الحطم: الذي لا يبقى من السير شيئاً.

(4) الوضم: هو ما يقطع عليه اللحم.

(5) شديد.

أقوى على الأسفار مني فتقبله بدلاً مني، فقال الحجاج: نفعل أيها الشيخ، فلما ولى قال قائل: أتدري من هذا الشيخ أيها الأمير؟ قال: لا، قال: هذا عمير بن ضابئ البرجمي الذي يقول أبوه:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني　　تركت على عثمان تبكي حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولاً فكسر ضلعين من أضلاعه، فقال: ردوه، فلما رد قال: أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين بدلاً يوم الدار؟ إن في قتلك أيها الشيخ صلاحاً للمسلمين يا حرسي أضرب عنقه، فضربت عنقه، فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بظهره وزاده وفي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدي:

تجهز فأما أن تزور ابن ضابئ　　عميراً وأما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما　　ركوبك حوليا من الثلج أشهبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه　　رآها مكان السوق أو هي أقربا

بهذه الخطة الحازمة التي اتبعها الحجاج نفر الناس خفافاً وثقالاً لحرب الأزارقة فمالت كفة المهلب. وكان من حسن حظ العالم الإسلامي أن تصدعت جبهة الأزارقة، فانفصلت منهم فرق مع بعض الزعماء. ثم قتل قطري بن الفجاءة بطبرستان، ولم تقم للأزارقة بعده قائمة، ولكن الحجاج كان مشغولاً أيضاً بالخوارج الشبيبية كما سيأتي.

مبادئ الأزارقة

1 - كفروا علياً ﷺ بعد التحكيم، كما كفروا عثمان بن عفان ﷺ في أيامه الأخيرة وكفروا أيضاً طلحة والزبير وعائشة وابن عباس، ومن لم يكن على رأيهم من المسلمين.

2 - اعتبروا دار المسلمين دار حرب يجوز فيها قتل النساء والأطفال ولا تؤكل ذبائحهم ولا يجوز التزوج منهم ولا يقبل إلاَّ الإسلام أو السيف.

3 - أظهروا البراءة من القعدة عن القتال من بقية الخوارج واعتقدوا كفر مخالفيهم.

4 - كانوا يمتحنون من هاجر إليهم بدفع أسير له ليقتله فإن فعل صدقوه وإلاَّ قتلوه.

5 - قرروا أن جميع مخالفيهم من المسلمين مع أطفالهم في نار جهنم خالدين، مع أنهم لا يقولون ذلك في أطفال الكفار.

6 - كانوا يقررون أن من ارتكب كبيرة من الكبائر فقد كفر وخرج من الإسلام[1].

7 - كان الأزارقة لا يجيزون التقية، لا في القول ولا في العمل. ويعدونها جبناً وخوراً.

8 - اعتبر الأزارقة القرآن وحده المصدر للأحكام الشرعية، ورفضوا ما عده العلماء ناسخاً لعموم الآية من فعل النبي ﷺ وقوله، فأوجبوا الحد على قذف المحصنات دون قذف المحصنين، كما كانوا يسقطون الرجم عن الزاني المحصن لعدم وروده في القرآن، أما السارق فكانوا يقطعون يده في القليل والكثير، ولم يقيموا للاجتهاد وزناً[2].

2 - الفرقة الثانية النجدات من الخوارج :

هم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي، وعرفوا بالنجدات حتى لا يلتبسوا بالنجدية المنسوبين إلى نجد.

كان نجدة يرى رأي نافع بن الأزرق، قبل أن يجهر نافع بما جهر به فلما اشتط نافع فارقه وكاتبه كما مر، وجعل مركزه اليمامة.

كان أول اشتباك لنجدة مع مخالفيه أن تصدى في ستين رجلاً لعير خرجت من البصرة تقصد عبد الله بن الزبير فاستاقها وقسمها في أصحابه الذين أخذ عددهم في ازدياد حتى بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل، ثم استولى على البحرين عام 67هـ، عندها وجه مصعب بن عُمَيْر (أمير العراق إذ ذاك) جيشاً كثيفاً لحرب النجدات قوامه أربعة عشر ألفاً فهزم أمام النجدات واحتوى نجدة ما في معسكرهم فعز جانبه واتسعت آماله، فوجه بعض جنوده إلى عمان فامتلكها، وبعث إلى حضرموت والبوادي من جبى صدقات سكانها، وسار إلى صنعاء فبايعه أهلها...

---

(1) راجع الملل والنحل ج1 ص210.

(2) من هذه المبادئ ومن تصرف الأزارقة نجد أنهم خرجوا من الدين الصحيح وأحلوا الحرام وحرموا الحلال، وعلوا علواً كبيراً. ونحمد الله أن لم يبق منهم أحد.

وهكذا دان لنجدة بالطاعة أقاليم الجزيرة العربية المطلة على الخليج والبحر العربي؛ وأقام عماله في تلك النواحي، والذي ساعده على ذلك تفكك الدولة الإسلامية وانقسامها بين الأمويين والزبيريين.

وبلغ من اعتزاز نجدة بنفسه أن خرج إلى مكة سنة 70هـ لأداء فريضة الحج وصلى بأصحابه في الحرم الشريف ولقبه جماعته بأمير المؤمنين.

لم يدم سلطان نجدة بعد أن اتسع هذا الاتساع طويلاً لأن الخلاف قد دب بينه وبين أصحابه لأمور نقموها عليه، فما لبثوا أن تصيدوا له ذنوباً فوثب له رجل من أصحابه يدعى (أبو فديك) فقتله، وهكذا كان شأن الخوارج تكثر بينهم الانقلابات الداخلية مما بدد قوتهم وأعان على التغلب عليهم فتبدد ملك نجدة.

كان نجدة شجاعاً سخياً، وكان مع استباحته سفك الدماء شديد الرغبة في تعلم أحكام الدين. كتب لابن عمر يسأله عن حكم فقهي، كما كتب إلى ابن عباس في ذلك أيضاً فقال ابن عباس: قاتله الله يقتل المسلمين ويسأل عن المحقرات.

أهم عقائد النجدات:

أ - لم يشارك النجدات الأزارقة في القول بتكفير من لم يهاجر إليهم من إخوانهم وإنما كانوا يرون جواز الإقامة بين الأعداء، لأن الرسول ﷺ كان قد أقام بين المشركين في مكة ثلاثة عشر عاماً.

ب - أجازوا التقية في القول والعمل لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: 28] ولقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: 28] ولكن الخروج أفضل.

جـ - يرون الاجتهاد بالدين بخلاف الأزارقة.

د - كان عامة الخوارج يقولون بكفر مرتكب الكبيرة، أما النجدات كانوا يقولون أن من يرتكب كبيرة ذات حد بأن زنى أو سرق أو شرب الخمر غير مصر على شيء من هذا

فهو مسلم ولا يقال في وصفه أنه كافر مشرك، وكان نجدة يرجو أن يعفو الله عن هؤلاء وإن عذبهم ففي غير النار ثم يدخلهم الجنة، لذلك كانوا لا يتبرءون من العصاة.

من هنا نعرف أن فرقة النجدات لو قدّر لها الحياة لكانت قريبة الاستقامة ويمكن إصلاحها، كما سيأتي في فرقة الإباضية.

3 - الصفرية والشبيبية والصالحية من الخوارج :

هؤلاء مبادئهم واحدة، وسموا بزعمائهم، من زعمائهم زياد بن الأصفر[1] ومن زعمائهم الأقوياء الأشداء شبيب بن يزيد الشيباني، وكانوا في أول خروجهم يتولون عبد الله بن وهب الراسبي الزعيم الأول للخوارج، فلما قتل يوم النهروان تولوا بعده أبا بلال مرداس بن أدية.

خرج أبو بلال بناحية البصرة حيث كان قد ولى معاوية على البصرة عبيد الله بن زياد وكان جباراً ولم تكن عنده حكمة، اشتد على قعدة الخوارج شدة لم يفعلها أبوه من قبله، فقتل منهم جماعة كثيرة صبراً كما مر، وكان ممن قتل عروة بن أدية أخا أبي بلال ومثل فيه بأن قطع يديه ورجليه في قيد الحياة وقال له: كيف ترى؟ فقال: أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك فأمر بضرب عنقه، كل ذلك لأنه تجرأ عليه بملاحظة وتلا أمامه: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[2].

نعم لقد صدق ابن أدية، فكان قتله سبباً في خروج أخيه مرداس، فخرج في أربعين رجلاً لا غير، فأرسل إليه ابن زياد جيشاً عدته ألفان وعليهم ابن حصين فانهزموا جميعاً أمام الأربعين شر هزيمة ولكن ابن زياد أرسل جيشاً ثانياً عدده ثلاثة آلاف فقضى على ابن بلال، فاجتمع الخوارج الصفرية على شبيب بن يزيد الشيباني الذي كان يكنى بأبي

---

(1) يقول أبو الحسن الأشعري في كتابه (مقالات الإسلاميين) ج1 ص101 الصفرية: سائر الخوارج يتفرعون من الصفرية سوى الأزارقة والأباضية والنجدات.

(2) سورة الشعراء آية 128 وما بعدها.

الصحاري، وصالح بن مسرح التميمي. كان صالح رجلاً ناسكاً مخبتاً مصفر الوجه، وقذته العبادة وكان بقرية تسمى (دارا) من أرض الموصل له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، فقال لهم ذات يوم ما أدري ما تنتظرون وحتى متى أنتم مقيمون، هذا الجور قد فشا، وهذا العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولايات على الناس إلاَّ علواً وعتواً وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب، فاستعدوا وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق مثل ما تريدون، فتراسلوا، وأرسل شبيب إلى صالح يستنهضه للخروج، فقدم عليه واستعدوا أن يخرجوا في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة 76هـ وقال صالح لمن معه: اتقوا الله عباد الله، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلاَّ أن يكونوا قوماً يريدونكم فإنكم خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه، وعصي في الأرض، فسفكت الدماء بغير حلها، وأخذت الأموال بغير حقها، فلا تعيبوا على قوم أعمالهم ثم تعملوا بها، فإن كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسؤولون، وكان شبيب تابعاً إلى صالح في أول الخروج، لذلك كانت هذه الفرقة تدعى في أول أمرها بالصالحية، وكان خروجها بأرض الموصل كما ذكرنا، وكان أمير الجزيرة محمد بن مروان من قبل بني أمية، فأرسل إليها جيشاً مؤلفاً من ألف رجل فهزم جيش بن مروان أمام الصالحية فأرسل إليهم جيشاً آخر عدته ثلاثة آلاف فهزم أيضاً.

لكن الخوارج الصالحية تركوا مكانهم وساروا جنوباً نحو العراقين (البصرة والكوفة) فأرسل إليهم الحجاج بن يوسف (وكان أمير العراق) جيشاً عدته ثلاثة آلاف فاشتبكوا مع الخوارج فقتل أمير الخوارج صالح التميمي، فجمعهم شبيب الشيباني وبايعوه فازداد بهم قوة على قوته.

كان شبيب من القوة والشجاعة مضرب الأمثال، وكان له صوت كالرعد القاصف، قال فيه شاعرهم:

إذا صاح يوماً حسبت الرعد قاصفة والريح عاصفة والموج يلتطم

وقالوا: كان إذا صاح في الجيش تسقط الحوامل أولادها، ولا يلوي أحد على

أحد، وكان معه جيش من النساء قوامه مائة وخمسون امرأة: بقيادة زوجته غزالة[1].

فقاتل شبيب جيوش الحجاج الجرارة، وكان يهزمها في جميع المعارك، حتى دخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج، وقتل حراس الكوفة، واعتلت زوجته غزالة منبرها وكانت شجاعتها عالية فرأت الحجاج من بعد فهجمت عليه وهي تصرخ لا نجوت إن نجا الحجاج، ففر هارباً من وجهها فعيره بعضهم بقوله:

أسد علي وفي الحروب نعامة ... فتخاء[2] تنفر من صفير الصافر

هلا لقيت غزالة يوم الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر

ودخل شبيب المسجد فصلى فيه الصبح بأصحابه وقرأ في الركعتين سورتي البقرة وآل عمران.

لقد عانى الحجاج في قتالهم الشدائد والأهوال وهُزِم له عشرون جيشاً في مدة سنتين.

قيل أن جند الحجاج بلغ خمسين ألفاً فهزموا أمام ألف من الخوارج حتى استغاث بعبد الملك وأخبره بأن أهل الكوفة عجزوا عن قتال الخوارج، وطلب إليه أن يرسل إليه جنداً من أهل الشام، فأرسل عبد الملك جنداً عدته أربعة آلاف فتقوى بهم الحجاج وقال لهم: يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين، ولا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم، غضوا الأبصار واجثوا على الركب، واستقبلوا القوم بأطراف الأسنة فثبت أهل الشام ثبات الأبطال الميامين[3] وانتهى الأمر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها، وترك امرأته غزالة فقتلت، ثم أرسل الحجاج في أثره جنود الشام، حتى قابلوه في الأنبار بجانب دجلة، وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جداً. وأخيراً كان نهر دجلة يفصل بين الفريقين، وأراد شبيب أن يعبر الجسر الممتد فوق النهر. وكان الجسر معتمداً

---

(1) يقول الخضري في محاضراته: غزالة هي زوجة شبيب. المحاضرات ج2 ص160. ويقول الدكتور أحمد مجاهد مصباح في كتابه الفرق الإسلامية ج1 ص83 أن غزالة هي أم شبيب وكانت زوجته مع الجيش أيضاً وتدعى (جهيزة).

(2) فتخ: أعيا وانبهر. والنعامة الفتخاء: مرتخية المفاصل كما في القاموس.. ج1 ص274.

(3) الأقوياء.

على الحبال، فقطع جنود الحجاج الحبال فسقط الجسر وغرق شبيب وهو يتلو: ذلك تقدير العزيز العليم. فانهزم أصحابه ووقع كثير منهم في الأسر، وقتل الحجاج منهم الكثير صبراً. ومن غريب تصميمهم على مبادئهم أن رجلاً منهم أراد الحجاج قتله فقال له: اسمع مني بيتين أختم بهما عملي ثم أنشأ يقول:

أبرأ إلى اللّه من عمرو[1] وشيعته ... ومن علي ومن أصحاب صفين

ومن معاوية الطاغي وشيعته ... لا بارك اللّه في القوم الملاعين

فقتله الحجاج، وفي تلك السنة وهي 77 هـ استراح المسلمون من الأزارقة ومن شبيب وجماعته بعد أن ذاق الناس منهم مر الحرب وشغلوا المسلمين عن أعدائهم ومصالحهم، وتخلصت الدولة الأموية من خطر جسيم ظل يهدد كيانها زهاء عشرين عاماً، وقد استنفد الكثير من الأموال والرجال مما جعل قوة المسلمين تتبدد بحرب لا طائل تحتها، وجميع من تقدم من الخوارج قد انقرضوا وانقرضت مبادئهم والحمد لله رب العالمين.

4 - الأباضية من الخوارج:

هم أتباع عبد الله بن أباض التميمي عاش في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وقد سبق لنا أن قلنا بأنه أنكر على نافع بن الأزرق تطرفه، بل حكم بكفره، وفرقته هي أعدل فرق الخوارج على الإطلاق، وكانت لهم صولة في الجزيرة العربية وعلى الأخص في حضرموت وصنعاء ومكة والمدينة ولكنهم مالوا إلى السكينة والتسامح والدعوة إلى مبادئهم بالحكمة، لذلك لا يزالون حتى يومنا هذا يسكنون في عمان وزنجبار وشمال إفريقيا، وهم يغضبون كثيراً حين يسمعون أحداً ينسبهم إلى الخوارج ويقولون نحن أباضية كالشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة.

ومهما يكن من أمر فهم أكثر الخوارج اعتدالاً وأقربهم إلى الجماعة تفكيراً، ويظهر ذلك من مبادئهم التي وضعها رئيسهم عبد الله بن أباض وهي:

---

(1) يقصد عمرو بن العاص.

أ - إن مخالفيهم ليسوا مشركين ولا مؤمنين حقاً، ولكنهم كفار نعمة.

ب - دماء مخالفيهم حرام في السر لا في العلانية، ودارهم دار توحيد.

جـ - لا يحل من غنائم المخالفين في الحرب إلا الخيل والسلاح، وكل ما فيه قوة في الحرب، ويردون الذهب والفضة إلى أصحابها.

د - لا يجوز قتال المخالفين إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان الحرب، وما سوى ذلك لا يجوز القتل ولا القتال.

هـ -أجازوا شهادة مخالفيهم، وأحلوا مناكحتهم وذبائحهم وقالوا بالتوارث معهم.

و - إن مرتكب الذنب الذي جاء فيه وعيد مع إيمانه بالله سبحانه وتعالى وما جاء به رسله فهو كافر كفر نعمة لا كفر عقيدة.

وهم وإن نسبوا إلى الخوارج فهم يرون أنهم وحدهم الذين حافظوا على تعاليم الإسلام الحقة، ويرون أن القدوة الحسنة كانت بعد النبي ﷺ في أبي بكر وعمر، ولا يحبون عثمان ويسمونه صاحب (بدع) ولا يلعنون علياً بل أنكروا قبوله التحكيم، ويعتبرون بيعته باطلة بعد التحكيم.

ونظرتهم إلى الإمام نظرة معتدلة، فلا يشترطون فيه أن يكون قريشياً، وإنما ينبغي أن يكون ورعاً فاضلاً يحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وإن الإمام الذي ينحرف ينبغي خلعه، ويرون أن الحكم الشرعي لا بد أن يكون عن طريق الإمامة، وللإمام السلطتان الدينية والدنيوية، ولا بد أن يكون اختياره عن طريق البيعة، والإمامة بالوصية باطلة على مذهبهم ويجوز تعدد الإمامة في أكثر من مكان، والحاكم العادل يغني عن وجود الإمام ولو كان ملكاً.

ومهما كان الأمر فقد كان فيهم عزة ومنعة، ونصرة للإسلام والمسلمين ضد المستعمرين في عمان والخليج وشمال إفريقيا وفي الجزائر على الخصوص، وسائر مبادئهم ليس فيها بعد عن عامة المسلمين فهم قوم صالحون.

الحكم على الخوارج

لقد استعرضنا أشهر فرق الخوارج إجمالاً ببَعض التفصيل، ومررنا على أكثر آرائهم، فيحق لنا أن نحكم عليهم حكماً يقربنا من الحقيقة، وهو أن تلك الفرقة من المسلمين التي تفرعت إلى فرق كثيرة، كان إدراكها للتعاليم الدينية إدراكاً سطحياً كما مر، وإن هذا الإدراك كان يصاحبه إخلاص لما عرفوه من الدين على حسب فهمهم له وإن إخلاصهم لعقائدهم الدينية جعلهم ينكرون على كل من يخالف أمراً من أمور الدين بحسب فهمهم وإدراكهم، وهذا الإنكار جعلهم يحكمون على مخالفيهم أحكاماً فيها قسوة، حيث إنهم يحكمون عليهم بالكفر وبالشرك، فهم لم يعرفوا أن الكافر قد فقد جزأي الإيمان، وهما الاعتقاد والعمل، والمسلم المعتقد بالله رباً وبمحمد نبياً إذا ارتكب أمراً مخالفاً لأوامر الدين فقد هدم جزءاً من أجزاء الإيمان[1] وعلى هذا لا يصح أن يسمى كافراً، ولكن الخوارج لم يهتدوا إلى تسميته بتسمية تتناسب مع تلك الحالة التي ليست إيماناً كاملاً، ولا كفراً مطلقاً، وإنما هي حالة وسطى بين هاتين المنزلتين، ولهذا لما جاء واصل بن عطاء وعرف رأيهم قال: إن مرتكب الكبيرة في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر، ويناسب تلك الحالة أن نسميه بالفاسق كما جنح إلى ذلك أهل السنة.

ولكن يظهر أن عدم الدقة في الأحكام كانت عند أوائل الخوارج (كالأزارقة) وأما متأخروهم كالأباضية والنجدات والصالحية وغيرهم فإنهم قد دققوا في الأحكام، وفرقوا بين عمل وعمل ولم يشتطوا في أحكامهم كما اشتط سلفهم، فصارت أحكامهم على مخالفيهم فيها كثير من التسامح ليس كل مخالف لهم كافراً أو مشركاً، وليس أطفال المشركين مخلدين في النار كما قال الأزارقة، ولو طال الزمن بالنجدات والصالحية لأمكن التفاهم معهم وتقريبهم إلى جادة الصواب كما قربت الأباضية والله ولي التوفيق.

---

(1) هذا على القول بأن الإيمان اعتقاد وعمل.